

تمثيلات الفلسفة الوجودية في روايات بشير مفتي

Representations of existential philosophy in bachir mefti's novels

وناسة صمادي،¹ مخبر المتخيل الشفوي بين حضارة المشافهة من جهة

وحضارتي الكتابة والصورة من جهة أخرى، جامعة باتنة 1،

ouanassa.smadi@univ-batna.dz, <https://orcid.org/0009-0008-9091-8929>

2025-04-26	تاريخ القبول	2025-02-18	تاريخ الاستلام
------------	--------------	------------	----------------

ملخص

يدور موضوع الورقة البحثية حول كينونة الشخصية في روايات المبدع الجزائري بشير مفتي، تعيش نصوصه زما متشظيا، لذوات متلاشية، تتجاذبها العبتية من جهة ومنظومة قيم مرفوضة من جهة أخرى، حيث تتمركز الشخصية في الهامش أو تأخذ موقعا نحو المجهول، فتعيش قلقا وجوديا، وتحاول استعادة ذاتها المفقودة المنشطرة بين الماضي أي ما كانت عليه، والحاضر ما هي عليه، وما ترغب أن تكون عليه مستقبلا (الدزاين بتعبير هايدغر). في هذه النصوص يفقد البطل كينونته التي تمثلها قيمه ومنظومته المعرفية ويواجه سلطة تصارعه وتقوم بفعل تدمير للفرد وهو ترميز لصراع الخير والشر. يسهم هذا القلق الوجودي في تبيان الطابع النفسي للمروي في روايات مفتي.

الكلمات المفتاحية: أنطولوجيا؛ الكاوس؛ السلطة؛ الشخصية؛ الدزاين.

Abstract

The topic of this presentation revolves around the essence of the character in the novels of the Algerian writer Bashir Mufti. His texts depict fragmented times and disintegrated selves, torn between absurdity on one side and a rejected system of values on the other. The character often occupies the margins or moves toward the unknown, experiencing existential anxiety while attempting to reclaim its lost self, split between the past—what it once was—the present—what it currently is—and the future—what it aspires to become (“Dasein” in Heidegger’s terms). In these texts, the protagonist loses their essence, represented by their values and cognitive system, and faces an overpowering authority that engages in a destructive act against the individual, symbolizing the conflict between good and evil. This existential anxiety helps highlight the psychological dimension of the narrative in Mufti’s novels.

Keywords: Ontology; chaos; authority; character; Dasein.

* المؤلف المراسل

مقدمة

الرواية الجزائرية، رواية فتية لم يتجاوز ظهورها خمسة عقود، ويشير الباحثون أن ولادة الرواية الناضجة فنيا تعود إلى السبعينات مع رواها "ابن هدوقة والطاهر وطار"، لكن هذا لا ينفي وجود إرهاصات أولى مثل "غادة أم القرى" 1947 "أحمد رضا حوحو" والطالب المنكوب "عبد المجيد الشافعي". وبعد اصدر أول رواية - ريح الجنوب ناضجة فنيا توالى الإصدارات، وقد مرّت الرواية بمراحل بدءاً بمرحلة التأسيس التي تنماز بحضور الثورة الجزائرية بوصفها ذلك المقدس الذي امتاح منه الروائيون، إلى جانب التركيز على التطبيق أو الهيمنة الاشتراكية على حد تعبير مالك بن نبي (دوغان، 1996، صفحة 85) حيث تموّعت الواقعية والواقعية النقدية والواقعية الاشتراكية إلى جانب الواقعية السحرية. ثم جاءت مرحلة الثمانينات التي تعد امتداداً للمرحلة الأولى وظهرت معها أسماء جديدة دخلت ميدان التجريب أمثال واسيني الأعرج جيلالي خلاص وغيرهم، وبعد مرور عشرين سنة على تأسيس الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة العربية، ظهر أدب عايش واقعا مغايرا، وتحول صراعها مع الآخر الغربي إلى صراع داخل الذات وانطمست هوية من نقاتل، أطلق على هذه الفترة من تاريخ الجزائر المعاصر عدة مسميات، اشتقت من معجم الأزمة، مثل العشرية السوداء، المحنة، عشرية الدم، العشرية الحمراء، ظهر في هذه الفترة جيل من الشباب راح ينقل شهاداته عن أوضاع الجزائر، منهم الروائي "بشير مفتي"، الذي أبدع وراح يناور اللغة ويحاورها من خلال استراتيجية التجريب، لذلك تطرح الورقة البحثية إشكالية الذات الجزائرية، التي تأجذ طابعا لا انسانيًا وتعيش حالة اغتراب وعبث وقلق وجودي، وتتساءل باستمرار عن جدوى الحياة وهذا ما يتماشى مع الفلسفة الوجودية كما طرحها سارتر وألبير كامو، كما تطرح معاناة الشخصية من عبء الحرية، وتتخذ قرارات مصيرية دون مساعدة خارجية مما يخلق صراعا داخليا لديها. وقد تمخض عن هذه الإشكالية عدة تساؤلات منها لماذا تحاول الشخصية تجاوز عبثية الواقع عن طريق العنف والتمرد؟ ولماذا استخدم بشير مفتي الفلسفة الوجودية كأداة لسبر أغوار النفس وتصوير المأزق الانساني؟ لماذا تعاني الشخصية من الاغتراب داخل المجتمع وداخل ذاتها؟ ما مفهوم الدازاين ولماذا يجب أن يتحمل مسؤولية وجوده؟

القلق الوجودي للذات

تعد رواية "دمية النار" رواية مثيرة للجدل والأسئلة؛ حيث تجعل المتلقي في حالة من القلق والحيرة والترقب لتحديد هويتها الأجناسية، منذ الصفحة الأولى، فهل هي رواية أو سيرة ذاتية أو رواية سيرة ذاتية، لكن سؤال الجنس أو النوع الأدبي يعيش مرحلة لم تعد تقبل بصفاء ونقاء الأجناس الأدبية فهذا التداخل وانسجام غير المنسجم إمكانية من الإمكانيات الجمالية (معتصم، 2014، صفحة 191)

تروي الرواية حياة الشخصية المحورية رضا شاوش والتحول التي مرت بها، تروي القلق الوجودي لهذه الشخصية التي انزلت نحو الهاوية وفقدان الذات وتششتتها عبر مراحل؛ تبدأ بفقدان

الروح (معتصم، 2014، صفحة 194) وبيعها للشيطان الذي تمثله السلطة المتعفنة، وولادة فاوست جديد وقّع وثيقة بيعه للشيطان، بالطمأنينة، المرحلة الثانية هي الشعور بالتفاهة أمام الآخرين من هم أكبر منه، ثم قتل الثقة في الآخرين ويتحول رضا شاوش إلى شخصية معادية انتقامية غير متوازنة، ليصل إلى مرحلة فقدان الذات، حيث تفقد قيمتها أمام النفس (معتصم، 2014، صفحة 195)، ومن هنا تتأكد دلالة العنوان وعلاقته بالمتن، والتحويلات التي مرت، بها الدمية من وسيلة تتلاعب بها الأيدي إلى آلة مدمرة؛ للآخر وللذات، انكسار الذوات الجزائرية بفعل مركزية السلطة وفعل التهميش والتجاهل لهذه الذوات وهذا يحيل بطبيعة الحال إلى فقدان الأمل والعيش في هذا المجتمع، الذي انسلخ من إنسانيته فهذا العمل وغيره من أعمال مفتي تؤكد مدى تأثره بالفلسفة الوجودية يتضح ذلك «من خلال تصوراتها التي يقدمها حول مفهوم الوجود وكيف أن الإنسان مرمى أو مقذوف إلى هذا العالم بأسئلة عميقة ومقلقة وحالات وجودية لا تنتهي بين الخوف / الانتحار / والندم / الحزن والندم / الرجاء واليأس» (عطار، 2016 صفحة 81)

ارتبطت شخصية رضا شاوش بماضي مشئت وحاضر مرير ومعقد، يسترجع ماضيه وطفولته وما يكتنفها من استيهامات، وكذا الغموض الذي يسيج حياة والده من جانب عمله، الذي لم يتمكن من معرفته حتى كبر: «صغيرا شعرت بلغزية أبي فلم أكن أفهم ذلك وكان يبدو لي رجلا محكوما بسر، حتى يخل إلى أنه رجل يعيش حياتين سرديتين، له عالم آخر في مكان لا نعلم به، عالم يخصه لوحده؛ لا أخفي بأنني كنت انتبه لكل كلمة تقال عن أبي هنا وهناك» (مفتي، 2013 صفحة 28) حياة الأب المشفرة جعلته يعيش قلقا مستمرا؛ توقظه الذاكرة إن خبا، وهنا تعلق آمنة بلعلى على ذاكرته بقولها «فالذاكرة بالنسبة إليه كانت بمثابة سياج دائري يحيط به من كل جانب» (بلعلى، 2011 صفحة 158)

وبدأت تتحول الشخصية وتفقد شيئا فشيئا منظومة القيم ، ويعيش أقصى حالات الشطط والعنف وينتصر الشر الذي تغذى من الحقد والخيبة والمعاناة «فالطريق الذي رسمته شخصية رضا شاوش في "دمية النار" يكشف عن صراع وجودي بين إغواء السلطة وبساطة العيش، بين فئة الأسياد وفئة العبيد وتكشف عن وجود أكثر من جهة في تقرير المصائر، لكن الأهم أن الرواية السيرة الذاتية خاضت في تجربة حياة عبثية انتقلت من الظل إلى العزلة، من الإنسان إلى اللاشيء» (معتصم، 2014، صفحة 199) يكشف رضا شاوش تشيئه وعبثيته وعن صراع داخلي من أجل تحقيق الذات، يقول رضا شاوش: «يوما بعد آخر صارت حياتي شبحية، وصرت أحيانا أشعر أنني غير موجود، وأغرق في ذاكرة منتهية، وأنفني في جغرافيا غير مرئية، وأنهض ولا أنهض، وأحلم بقطرات قليلة من الدموع، حتى يوم توفيت والدتي لم أبك» (مفتي، 2013، الصفحات 149-150) يكشف السارد المناطق المظلمة في ذاته المقموعة والذوات الأخرى بفعل انتهاكات السلطة.

الكاوس السردى

يقول ميلان كونديرا: «فقد بدا هذا العالم فجأة، في غياب حاكم أعلى، غامضا غموضا رهيبا؛ لقد تفتت الحقيقة الوحيدة إلى مئات الحقائق النسبية التي يتقاسمها الناس، هكذا ولد عالم الأزمنة

الحديثة، والرواية صورتها ونموذجها، معه» (كونديرا، 1991 صفحة 08) يؤكد كونديرا ويشك في المفاهيم والموجودات ومن ثم لم يعد الروائي يؤمن سوى بيقين واحد هو اللايقين (مؤلفين، 2014 صفحة 43) وصارت الرواية تبحث في المناطق المظلمة والمجهولة لإعادة كشفها بالعودة إلى "مفتي" نجد أبطاله تعيش العناء وتعيش اللايقين ففي رواية "دمية النار" يحاول رضا شاوش استعادة ذاته المفقودة «هل كنت أقاوم ذلك الفقدان؟ ذلك الإحساس الغريب بالليل والظلمة القاتمة، والروح التي لم تعد لها روح؟ أم فقط هي لحظتي التي كنت أرى عبر مرآتها الشفافة روحي وهي تنتهي، وهي تذهب ذهاباً نهائياً، بلا أمل عودة للحياة التي كنت أتمناها ذات زمن بعيد؟ لا أدري، ولكن في تلك الدوامة كان كل شيء قد فقد وجهه، مثلما فقدت أنا روحي صار العناء كلياً، والهيكل المرن الحيوان المفترس كلياً هو الآخر، صرت أنا ولست أنا» (مفتي، 2013، الصفحات 119-120) إنها ذات متشظية منشطرة بين الماضي والآتي والمستقبل الدزائن بمفهوم هايدغر، حدث لذات رضا شاوش تحولات أفقدته إنسانيته وكنونته، ما كان يتمثله من قيم ومثل، ويرى الناقد محمد بوعزة أن الحكيم في الرواية يتشظى «في شروخ هذه التجاذبات الأنطولوجية، ويغرق العالم الروائي في العناء الكلي، ولذلك يتم على صعيد المتخيل تأكيد هذه الرؤية الميتافيزيقية بعملية ترميز للصراع بين الذات (رضا شاوش) والمؤسسة (السلطة) باستعارات رمزية وجودية ترتقي به إلى صراع ميتافيزيقي بين الخير والشر، بين النور والظلام، بين النظام والكاوس، بحيث تحل الاستعارة الشيطانية محل بشاعة الواقع» (بوعزة، 2014 صفحة 64) تتأرجح الذات وتتجاذبها المفارقات، ودخلت متاهة العناء حيث كل شيء منفي للانظام، اللايقين واللا جميل واللا انتظام «لم يعد وجهي يحيل على وجهي، وذاكرتي تقياض ماضيها البريء لتقذفه في حمأة نار مستعرة، فإذا بي أولد شخصاً آخر، مليئاً بأشياء أخرى، ودماء جديدة... دماء آخرين امتص منهم روحهم، وروحهم البريئة لأعيش، صرت الشر، ودمية الشر، صرت الشيطان، ودمية الشيطان... صرت مثل دمية النار، تحرق من يمسكها، صرت اللاشيء الفارغ من المعنى» (مفتي، 2013، صفحة 120) إن المقطع السردى يطرح أسئلة وجودية "من أنا؟ كيف كنت؟ وماذا أصبحت مما يحيل على أزمة الذات واللايقين والشك والعناء، فهذا النموذج الإنساني الروائي يتحكم في بنائه قانون التحول «ففي مسار التكوين يخضع بطل الرواية "رضا شاوش" إلى تحولات غير متوقعة، ضمن سياقات ذاتية واجتماعية وتاريخية معقدة... يأخذ التحول في المخيل صورة المسخ بالمفهوم الكافكاوي، حيث يتحول البطل من شخص مثالي رومانسي يحب الأدب والكتابة... إلى شخص متوحش قاتل مأجور» (بوعزة، 2014، صفحة 65) وكان للسلطة عظيم الأثر في تحول رضا شاوش من شخص محب له قيم ومثل عليا إلى وحش وقاتل مأجور، وكلما ارتقى في جهاز الأمن، ازداد شراً، وتلاشت إنسانيته، ويعد القتل مركز الثقل لبلوغ القمة، والتخلي عن الإنسان الكامن في ذاته» (عطار، 2016، صفحة 86)

أما في رواية "وحيدا في الليل" تبدو شخصية "رشيد كافي" الروائي شخصية مهزوزة تعيش عناء ذاتياً، وتفتقد إلى الثقة، وتعترئها هواجس تزلزلها وهذا ما يعبر عنه رشيد كافي من خلال رسالته لصديقه الناشر "لقد كتبت بحُب ومتعة وسعادة لا توصف. اعتقدت في الكتابة أنها تستطيع

أن تخلصني من شعوري الدائم بالعمّة التي تغلف هذا الوجود، لكن الكتابة لم تعمل إلا على تعميق هذا الشعور الداخلي بالقتامة" (مفتي، وحيدا في الليل، 2019 صفحة 35) أعلنت الشخصية عن حالة اليأس والعماء الذي تعيشه وخصومته مع ذاته، التي يبحث عن مصالحتها وانتقلت هذه السوداوية وهذا اليأس إلى الناشر أو الشخصية المحورية في الرواية وهذا ما جاء على لسانه "لا أدري لماذا أشعر أن قراءتي تلك الرسالة قد خلقت في حالة من السوداوية العنيفة. وهي تجعلني حتى أفكر أن أتوقف عن كل شيء حتى عن هذه الحياة التي لا تشبه الحياة" (كونديرا، 1991، صفحة 25)

فهذا الإحساس الرهيب بالقتامة والعماء عند شخصيات الرواية مؤشر للفلسفة الوجودية وهي علامة مميزة لروايات مفتي. إذ يعيش أبطاله حالة من القلق والترقب، ترقب المجهول وعلاقتهم بالسلطة، تقوم على الإكراه والعنف، وهذه العلاقة بين المثقف والسلطة أزلية، كما يطلق عليها علاقة السيف بالقلم التي تقوم على التضاد والكره، تنقلنا الرواية من الرسالة إلى المذكرات إذ تتداخل الأنواع لتعبر عن حالة كل شخصية من شخصيات الرواية، وما تعيشه من استبداد سلطوي سياسي أو أبوي أو ذاتي وتتحول الشخصيات إلى حالة من التيه النفسي والضياع وفقدان الذات، وهذا ما عبر عنه هشام ماضي في هذا المقطع السردي "شعرت أن أسئلتني كلها تثير في نوعا من الإحباط وحالة من الضعف، حالة من التراخي والاستسلام، وبعدها جاءني مرحلة فراغ مُشينة وضاع التوهج الأول والفيضان الجميل، الذي صاحب حالة الكتابة، شعرت باليتم، وبدأت أثوّه ولا أعرف ماذا يجب أن أفعل أو كيف أواجه مثل هذه الحالة اليائسة التي ولدت بعد حالة مشعة بالضوء". (كونديرا، 1991، صفحة 56)

إنها رواية مليئة بالتساؤلات الوجودية، والقلق والا تسامح والحزن الذي يُغطي صفحاتها التي تكشف عن نفوس تقترح فلسفتها في الحياة. وهي فلسفة متشائمة تُؤشر إلى تراجيديا الإنسان في هذه الحياة، ربما فاقت مأساويتها مآسي شكسبير وهذا عبر عنه هشام في حوار مع شخصية الكاتب رشيد كافي: "... بل كنت تنظر إليها أنها طريقة عيش، أو وسيلة تتقبل عبرها بوجودك في هذه الحياة التي تعدّها دائما متاهة كبيرة، وأننا وجدنا فيها لنتعذب أكثر ممّا نستمتع" (مفتي، وحيدا في الليل، 2019، صفحة 80)

وأما في رواية خرائط لشهوة الليل حيث الحبكة غير مستقرة وتتبع السرد إيقاعا فوضويا يعكس الواقع الجزائري في أثناء العشرية السوداء استخدم مفتي لغة متشظية مليئة بالصور المتداخلة مما يجعل النص أشبه بمشهد سريالي يصعب القبض على دلالاته بسهولة، وتجسد هذه الرواية الكاوس السردي بامتياز، إذ تتداخل الأزمنة بطريقة مربكة وتتعدد الأصوات ويمتزج الواقع والخيال، وفي هذا الشاهد نتلمس حالة الضياع والعماء الذي تعيشه الشخصية الرئيسة ليلى عياش « أحيانا أشعر بأنني ولدت في ذلك اليوم في تلك اللحظة التي سقطت فيها أول جثة أمامي لكنني أعود لأكتشف أنني كنت هناك منذ البداية منذ أن بدأ الليل يتناسل في روعي » (مفتي خرائط لشهوة الليل 2008 صفحة 87)

فالشخصية الرئيسية تعيش حالة من التشوش الزمني حيث يصعب عليها تحديد متى بدأ كل شيء وهو انعكاس لحالة الضياع التي تعاني منها. كما تعكس بعض الشواهد الحالة النفسية المضطربة المتشظية للشخصيات : « الليل يمتد داخلي يتكاثر مثل خلايا سرطانية وأنا أبحث عن نافذة واحدة تفتح على صباح آخر » (مفتي خرائط لشهوة الليل 2019 صفحة 44) فالشاهد يحيل الى الاختناق النفسي والاغتراب الداخلي الذي تعاني منه ليلى، وتوظيف السرطان يعزز لدى المتلقي الاحساس بالفوضى واليأس، والرواية مفتوحة على تعدد القراءات فهي بحث عن الذات ونقد للوضع السياسي وتجربة وجودية عن حالة العبث واللامعنى وهي تعكس حالة اللايقين والتشظي لدى الشخصيات، داخل عالم مضطرب حيث لا توجد خرائط واضحة للنجاة.

وأما في رواية غرفة الذكريات التي تعتمد على تقنية التذكر المتقطع يتلاعب الراوي بالسرد عبر استدعاء ذكريات غير مترابطة تعكس تشوش ذاكرة البطل الذي يعاني من أزمة هوية واضحة حيث تتداول الذكريات والأحداث بشكل يجعله غير قادر عن التمييز بين ذاته القديمة والحالية، هذه الفوضى في تشكيل الشخصية تعزز من الكاوس السردى " أتذكر كل شيء ولكن فب الآن ذاته أعجز عن كتابة الذكريات كأنها تقاوم الخروج من تلك النقطة التي سكنت فيها طويلا.. لم أتصور الذكريات تقاوم صاحبها إلى هذا الحد لكن سأكتب تلك الذكريات مهما حدث ومهما كان الثمن" (مفتي غرفة الذكريات، صفحة 210). فالشاهد يحيل إلى حالة التوتر النفسي والتشظي الوجودي التي تسيطر على الشخصية، فالشاهد أشبه بالمشهد السرياني الذي يصعب القبض على دلالاته بسهولة.

يمكنني القول ان بشير مفتي استخدم الكاوس السردى كأداة لتصوير القلق الوجودي والسياسي في المجتمع الجزائري. فهو ليس تقنية شكلية بل هو انعكاس لحالة العالم الذي يصفه حيث الحدود بين الخير والشر، الواقع والخيال والماضي والمستقبل تبدو غير واضحة.

بين السلطة والشخصية المحورية أية علاقة؟

وجدت الذات نفسها أمام موضوع لم تختره بإرادتها وإنما قذفت إليه، إنها قمة العبثية التي تشتغل عليها أعمال بشير مفتي، ويمكن التأكيد على وجود نمطين من الذات، ذات مغلقة تسعى نحو بقائها الحر الواعي (برقاوي، 2014 صفحة 32) تواجه الذات سلطتين سلطة أبوية بطيريركية والسلطة الحاكمة، ففي رواية "بخور السراب" تقوم علاقة الشخصية المحورية - خالد رضوان - مع أبيه على التوتر والقلق وتقوم على المفارقات وتناقضات شديدة بين الحب والكراهية، الافتخار والاحتقار، العنف واللين (عطار، 2016 صفحة 82) يقول خالد رضوان: «توفيت أمي ذات يوم... لفترة طويلة بعد غيابها بقيت وجها لوجه معه، كبرت معه، كنت أحس بالاختناق والعدم لأنه نادرا ما يتكلم، هل كان يخفي سرا ما علي؟ هل هناك نبوءة بحقي؟ يا للوقاحة لماذا كان عنيفا معي إذن؟ لماذا لا أذكر إلا غلاظته وإذلاله والساعات القليلة التي كنت أعجب به هي عندما يجلس أمام قبور الموتى ذليلا أمام هذه القوة الغريبة التي تنهينا من الوجود تماما» (مفتي، بخور السراب، 2007 صفحة 27) تظهر العلاقة الأوديبية بين خالد رضوان ووالده، الذي انتقلت إليه السلطة وبانتقالها إليه حدث التحول في تاريخ البشرية وحدث التحول في وظيفة الدماغ حسب علماء الأنثروبولوجيا وعلماء الروح الذين

يشيرون إلى المرحلة الانتقالية من النظام الأمومي إلى نظام الأبوي، أما بالنسبة لوظيفة الدماغ حدث الانتقال من هيمنة نصف الدماغ الأيمن؛ مركز الحدس والمركز الروحي، إلى هيمنة نصف الدماغ الأيسر؛ الدماغ الحسابي والمنطقي والأناي (سلامة، 2014 صفحة 18، 19) اصرار الحكم للأب أو النظام البطريركي وبدأت رحلة العذاب للأبناء الذين يكرهون الأب ويحاولون قتله: «نتصور دائماً أننا لا نحب آباءنا عندما نهرب منهم، نتصور كل شيء عنهم وعنا، نكرههم نمقتهم، نتحداهم، ننتفض بأعلى ما نملك من شجاعة ضد سيطرتهم، ثم بعد أيام أو شهور أو سنوات نحن إليهم، نشعر أننا أخطأنا في حقهم» (مفتي، بخور السراب، 2007، صفحة 27) هو قانون الأسرة، حيث تتعايش المتناقضات داخل الذات الواحدة، التي لا تكف عن طرح الأسئلة دون أجوبة نهائية لها.

أما رضا شاوش في "دمية النار" تبقى سلطة الأب قائمة يحاول قتل الأب بالخلاص من عقدة الوالد مدير السجن وممارسته الإرهابية على المعتقلين لكن يجد نفسه في الأخير بعد موت الأب يحتفظ بإرثه في تعذيب المعتقلين، وبذلك احتفظ بلوثة الأب وعنفه وقهره للآخر «... قررت أيامها عدم الحديث عن أبي، لقد خرجت من تلك القوقعة نهائياً، ولم يعد لي أية علاقة بماضي ذلك، كنت هاربا منه، مع إنني كلما هربت عدت، حتى أيقنت بأنني مرتبط به بخيط سحري، ومدمج حتى العظم بداخل تلايبه. لقد فتحت الباب أخيراً لنفسي كي أكون مثله، شخصا ينفذ الأوامر، ويعيش بلا ضمير، أبي بشكل لا واع» (مفتي، دمية النار، 2013 صفحة 122) لقد حلت ذات الأب في ذات الابن وتحول مثله إلى قاتل مأجور، ينفذ الأوامر القذرة لسلطة الفساد وأصبح ابن النظام ولجهاز القمع، ومن سلطة الأب إلى سلطة جهاز المخابرات و«في النهاية تنتصر منظومة الفساد (السلطة)، ويفقد قيمه ويتحول إلى جسد بدون روح، إلى مادة فاسدة لا تصلح سوى للقتل... يستعير المتخيل وعلى غرار نموذج كافكا صورة "دراكولا" لوصف هذا التحول، حيوان مفترس يعيش على امتصاص دماء الآخرين» (بوعزة، 2014 صفحة 67) بعد الانضمام إلى الجهاز المفترس يتحول إلى دراكولا Dracula وإلى أكل لحوم البشر Canibale لقد تجرد من إنسانيته التي انقرضت تماماً وهذا ما يؤكد المشهد السردى الآتي: «- أعرف أنك منضبط، لقد جربناك في أشياء كثيرة، وأديت عملك بكل تفان ونجاح، ولهذا الجميع وافق على ترقيةك..

- ما المطلوب مني تأديته يا سيدي؟ أنا مستعد لتنفيذه على الفور..

- نظر إلى كومة الأوراق التي كانت مبعثرة فوق مكتبه، ثم أخرج صورة وقدمها لي:

- نريدك أن تصفي هذا الشخص..

لم يطلب مني من قبل أن أقتل أي شخص، كنت أعرف أن المسألة مسألة وقت، ولكن لم أقتل؟! نعم يمكنني أن أتخيل نفسي دراكولا، أو في صورة أكل لحوم البشر، ولكن قاتلاً؟!» (مفتي، دمية النار، 2013 صفحة 134) التنازل والقتل يساوي الارتقاء في المناصب، والتحول منسوب إلى المؤسسة الإيديولوجية للسلطة وهذا يحدد البعد الإيديولوجي لمنظومة الفساد، يحاول رضا شاوش الهروب من عقدة الأب السجن القاتل لكن يسقط في الدائرة ذاتها (بوعزة، 2014 صفحة 67) وصارت ذاتا مستعمرة من قبل السلطة تنفذ الأوامر فقط وأصبحت هي بدورها ذات سلطوية؛ ذات وعي تخريبي،

يسعى إلى تدمير الذات المعارضة لأسياده، سقط رضا شاوش في الفساد والعنف وأصبح عرضة للكاوس (العماء) بتعبير الناقد محمد بوعزة.

فأبطال بشير مفتي تعيش حالات التمزق والتشظي ولا تجد الخلاص، تعيش زمنا وجوديا وزمنا نفسيا وهذا النمط يغلب في روايات تيار الوعي، والزمنا النفسي مليء بالتعقيدات والتناقضات فهو زمن التيه والقلق والتساؤل والتشظي، إنه زمن يتسارع لدرجة الجنون ويتباطأ لدرجة الملل والانتحار (عطار، 2016 صفحة 87، 88)

وفي رواية وحيدا في الليل، يُمارس الأب العنف اللفظي والجسدي والمعنوي ضد أبنائه "لم تكن طفولتي جنة، كما لم تكن لها علاقة بالنعيم، إن ما أتذكره من والدي هو العنف لا غير." (مفتي، وحيدا في الليل، 2019، صفحة 107)

وتواصل السلطة البطيركية إضطهادها "... وعند ما يظهر واحد منا أمامه، ينادي عليه أن يقف أمامه ويده وراء ظهره ورأسه إلى الأسفل، ويبدأ لعقاب الشديد والضرب العنيف، الضرب في أبشع صورته، كأنك تدخل غرفة تعذيب، ينزع ملابسك، ويبدأ برفسك بحذائه الخشن، لتأتي بعدها مرحلة الصفع، كم كان مرعبا الصفع" (مفتي، وحيدا في الليل، 2019، صفحة 101)

كينونة الذكورة / الأنوثة

يقوم انتاج النص على مجموعة من العناصر منها حضور المرأة التي تتدخل في تشكله بشكل أو بآخر، فهي إحدى منابع التخيل منذ شهرزاد وما قبلها، إنها تعد مكونا أساسيا لذات النص وهويته، وإن كانت تمثل الهامش في بعض الكتابات الذكورية، في حين أن الذكورة متمركزة، وحتى حضور المرأة هو حضور الجسد ليس بوصفه بناء ثقافيا واجتماعيا بل بوصفه بنية بيولوجية (الزاهي، 2003 صفحة 26) إغرائية إيروسية لها وظيفة محددة وقد تتوهم الفاعلية والقوة، لكن تبقى دائما «مجرد صدى لصوت الذكر، ومحيطا يؤثت فعالية البؤرة الطاغية لنشاط الرجل وهيمنته» (ماجدولين، 2012، صفحة 52) فالمجتمع ذكوري والسلالة ذكورية وفي هذه المركزية تعيش المرأة الإكراهات الذكورية، التي يمارسها الرجل الذي ربما يعاني من القهر ذاته الذي يفرضه على المرأة ف «الرجل قبل المرأة يعاني من ذكورته، يعاني من قهر السلطة عليه، مما يجعله يعكس هذه الأزمات على المرأة فتعاني الأمرين... ذلك أنه مسجون بأفكاره الشرقية» (عطار، 2016، صفحة 84) وعلى المرأة أن تحرره على حد تعبیر المفكر على حرب. وفي روايات بشير مفتي تمثل المرأة بنية أساسية في تشكل النص، ويقدمها متحررة مقبلة على الحياة تنزع إلى الاحتفاء بالجسد، يقول البطل في رواية اختلاط المواسم وهو السارد في الآن ذاته «ذهبت إلى ملهى ليلي ... تجولت بنظري في النساء الجالسات على الأرائك، كنا كثيرات من كل الأعمار ... مجهزة لكل أنواع الرغبات عليك أن تدفع الثمن المناسب فقط، أخذت مكانا بالقرب من واحدة ... طلبت من النادل أن يحضر لنا زجاجة ويسكي صغيرة ... لم أكن أنتظر أن تعجبني طريقة تلك العاهرة في إدارة الحوار معي ... فلن أكون الأول ولا الأخير من الغرباء الذين يمرون على طاولتها ويجلسون إلى جانبها وتمارس عليهم بعض إغوائها بحسب ما تشعر به من رغبة عند الطرف الثاني، وهي ترى الشرب والسكر ضروريا في عملية الإغواء فهو الذي ينشط عند الرجل

رغباته الجنسية الخادمة» (مفتي، اختلاط المواسم أو وليمة القتل الكبرى، 2019 صفحة 40، 41)، حدد وظيفة المرأة في الإغواء الذي يمثل مركز قوتها، فقد وفر فعل الجسد سلطته على الذكر ولكن هذا لا ينفي تمركز الذكر الذي جعله الكاتب محور الحكى.

وفي بخور السراب، يصور المرأة متمردة على تقاليد وقيم المجتمع وهذا ما يؤكد استرجاع خالد رضوان: «أتذكر سعاد آكلي أنا أيضا. تلك المجنونة المستهترة التي وكما أخبرني صالح كبير عنها «لا تصلح لشيء إلا أن تزرع الفتنة في قلب رجل» (مفتي، بخور السراب، 2007، صفحة 19) صور مبتذلة عن ذات المرأة في علاقتها مع الرجل حيث تتحداه في ثورتها على المحظور «حاول صالح كبير أن يساعدها أكثر من مرة، حتى أنه عرض عليها أن تعمل معه في الجريدة التي صار يشرف عليها، لكنها رفضت، كانت تصر على عملها في المرقص» (مفتي، بخور السراب، 2007، صفحة 20) فالجسد الراقص يشكل للذات مظاهر وعلامة على وجودها فحركة الجسد تسهم في الشعور بالكينونة الأنثوية وأنها مركز جذب لذات الآخر وكينونته، بما يحويه من غرائز متوفرة ومشاعر ثاوية، دفينة عند الآخر الذكر، أما في دمية النار، فالمرأة هي الحبيبة هي الحب الأول للشخصية المحورية رضا شاوش لكنها «جرحي النرجسي الذي لن يندمل تبدأ فتاة عادية لتنتهي راقصة كباريه ومجندة في العصابة / المنظمة» (معتمصم، 2014، صفحة 198) أحب رضا شاوش، رانية مسعودي لدرجة الهوس والجنون، لينتقم منها بطريقة بشعة حين اغتصبها وهي ملك لغيره «طلبت من رانية جارتنا أن تدخل معي غرفة النوم دون جدوى عرفت بعدها لماذا كانت ترقص حين عثرت عليها مرة في شارع قريب من حيننا تمشي مع شاب يكبرها بسنوات عديدة ... بكيت سرا طبعاً وعندما توقفت دموعي عن النزول، صممت على الانتقام منها بأي طريقة» (مفتي، دمية النار، 2013، صفحة 43) علاقة الرجل بالمرأة تقوم على عدم الائتلاف وعدم التوافق فالأنا الأنثوي هو آخر للأنا الذكوري فالمرأة كما يرى فريد الزاهي واعية باستهجمات الرجل الآخر والغير بالنسبة إليها حين يحول لذته إلى رغبة (الزاهي، 2003، صفحة 32) وهي رغبة نرجسية صادية وهو في كل الأحوال سيد للعبة وهي مآة يريد تحريكها أن يشاء.

فمنذ شهر يار ولعبة القتل التي كان يمارسها ممزوجة بالعنف الجسدي ضد الأنثى وإلى اليوم، مازالت المرأة كائن مقموع جسدياً، جسدها تيمة عند كثير من الروائيين وأصبحت الكتابة "ممارسة جنسية مقموعة، وأكاد أراها ممارسة عدوانية مقصودة ويشوبها كثير من الاستفزاز وقليل من السادية وقل إن شئت قليلاً من الماسوشية." (يوسف، 2013) فلغة الجسد هي الممنوع المرغوب، والجسد الأنثوي يعد عنصراً جوهرياً تتكأ عليه رواية "وحيدا في الليل": "لقد تعرفت إلى بيانكا في المتجر الكبير الذي كنت أعمل فيه، وساعدتها فقط على حمل بعض مقتنياتها من المواد الغذائية حتى السيارة، وبالفعل لم تكن مساعدتي مجانية، لقد أعجبتني من أول نظرة كجسد في البداية." (مفتي، وحيدا في الليل، 2019، صفحة 89) هذا المشهد الرئي يجعل القارئ يستكشف أن التعلق بالجسد يؤدي إلى التعلق الروحي الذي يوصل إلى التقويض الأيروسي.

خاتمة

نصل في الأخير إلى أن روايات مفتي لا تقتصر على كونها مجرد أعمال سردية تهدف إلى الترفيه أو نقل الوقائع، بل تتجاوز ذلك لتشكل فضاءً أدبيًا مشحونًا بأسئلة فلسفية تتعلق بالوجود والهوية والمصير. إنها أعمال تعكس القلق الوجودي الذي يعيشه الفرد الجزائري، ليس كحالة فردية معزولة، بل كمعاناة جماعية نابعة من تاريخ مليء بالصراعات والتحولت السياسية والاجتماعية. هذه الروايات تقدم شخصيات محورية تعيش في حالة تمزق وتشظٍ نفسي وفكري، حيث يتجسد الصراع الداخلي بين الحاجة إلى الاستقرار والخلّاص، وبين واقع قاس يُعيد إنتاج الأزمات باستمرار.

من خلال بناء سردي معقد ومضطرب، تعكس الروايات تجربة الذات الجزائرية في مواجهة واقع متغير، حيث لا تنفصل الأزمات النفسية الفردية عن الأزمات السياسية والاجتماعية، بل تتداخل معها لتشكّل صورة أكثر تعقيدًا للوجود. فالشخصيات لا تعاني فقط من أزمات داخلية ناجمة عن الشك والخوف والضياع، وإنما تعكس أيضًا حالة من الضياع الجمعي، حيث يصبح القلق الوجودي نتيجة طبيعية للصدمات التاريخية، والتهميش السياسي، والانقسامات الاجتماعية التي فرضتها الأحداث المتعاقبة.

إن هذه الروايات تقدم مشهدًا يكتنفه الغموض والاضطراب، سواء على مستوى الأحداث أو البنية السردية، مما يجعل القارئ يعيش تجربة التيه ذاتها التي تعانيها الشخصيات. وهذا ما يمنحها بعدًا فلسفيًا عميقًا، إذ لا تقدم إجابات واضحة أو نهايات مستقرة، بل تترك المجال مفتوحًا أمام التساؤل والتأمل في طبيعة الإنسان وعلاقته بالسلطة والواقع والهوية.

نتائج البحث

أولًا: القلق الوجودي للذات

تتميز الروايات بتقديم شخصيات تعيش صراعًا داخليًا، متأرجحة بين البحث عن المعنى والشعور بالضياع في واقع يفتقر إلى الثبات. هذا القلق الوجودي ليس مجرد معاناة فردية، بل هو تعبير عن أزمة الهوية الجماعية في الجزائر، التي تشكلت بفعل الاستعمار، الحروب، والتحولت السياسية العنيفة.

ثانيًا: الكاوس السردية وبنية الفوضى

تتبنى الروايات بنية سردية غير خطية، حيث تتداخل الأزمنة، وتتشظى الأحداث، ويتحول السرد إلى فضاء من الفوضى المقصودة. هذا الأسلوب يعكس حالة الاضطراب الوجودي الذي تعيشه الشخصيات، كما يُحاكي التشوهات العميقة التي أصابت الوعي الجماعي الجزائري بسبب القمع والتهميش. إن الكاوس السردية هنا ليس مجرد تقنية فنية، بل هو أداة تعبير عن واقع متأزم ومعقد.

يستخدم الكاوس السرد في تحليل النصوص السردية لوصف الفوضى في بناء القصة ويظهر في عدة مستويات، منها التشويش الزمني وتعدد الأصوات السردية والتجرب اللغوي كاستخدام لغة غير مفهومة مما يجعل التواصل داخل النص مضطرباً.

ثالثاً: العلاقة بين السلطة والشخصية المحورية

تحضر السلطة في الروايات بوصفها قوة قمعية، تفرض سيطرتها على الشخصيات المحورية وتدفعها إلى العزلة أو المواجهة. العلاقة بين السلطة والفرد تتسم بالتوتر الدائم، حيث تظهر الشخصيات بين خيارين: إما الخضوع والخنوع، أو التمرد والمقاومة، وكلا الخيارين يؤدي إلى نتائج مأساوية. وهذا التصور يعكس رؤية الروايات لدور السلطة في تشكيل المصائر الفردية والجماعية، باعتبارها قوة قاهرة تتحكم في مسارات الحياة والموت على حد سواء.

رابعاً: كينونة الذكورة والأنوثة في السرد

تقدم الروايات إعادة تفكيك للصور النمطية المتعلقة بالذكورة والأنوثة، حيث لا تقتصر الذكورة على مفاهيم القوة والسيطرة، بل تتعرض هي ذاتها للهشاشة والانكسار. في المقابل، تُرسم الأنوثة في بعض الأحيان كفضاء للمقاومة والصمود، لكنها في أحيان أخرى تكون رمزاً للقهر والتهميش. هذا التقاطع بين الجنس والسلطة يجعل الروايات مساحة لإعادة التفكير في العلاقات الجندرية ضمن السياق الجزائري، بعيداً عن الصور التقليدية للرجولة والأنوثة.

ختاماً

إن روايات مفتي تتجاوز حدود السرد التقليدي لتصبح مرآة تعكس القلق الوجودي للفرد الجزائري، وتعيد مساءلة العلاقة بين السلطة والذات، كما تطرح رؤية نقدية لمفاهيم الذكورة والأنوثة في المجتمع. إن اعتمادها على بنية الكاوس السرد يعزز من الطابع الفلسفي لأعمالها، حيث لا تسعى إلى تقديم إجابات جاهزة، بقدر ما تدفع القارئ إلى التفكير في تعقيدات الهوية والوجود والسلطة في الجزائر. وبذلك، تظل هذه الروايات علامة فارقة في السرد الجزائري، كونها تفتح آفاقاً جديدة للتأمل في الذات والمجتمع عبر رؤية سردية عميقة ومتعددة الأبعاد.

قائمة المراجع

- 1- الزاهي، ف. (2003). النص والجسد والتأويل. بيروت: لدار البيضاء.
- 2- برقاي، ح. (2014). أنطولوجيا الذات بيان من أجل ولادة الذات في الوطن العربي. بيروت: المركز الثقافي العربي الدار البيضاء.
- 3- بشير مفتي. (2007). بخور السراب. بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون.
- 4- بشير مفتي. (2019). اختلاط المواسم أو وليمة القتل الكبرى. بيروت: منشورات ضفاف.
- 5- بلعل، م. (2011). المتخيل في الرواية الجزائرية من المتماثل إلى المختلف لجزائر: دار الأمل.
- 6- بوعزة، م. (2014). ، سرديات ثقافية. الرباط: دار الأمان.
- 7- دوغان، أ. (1996). في الأدب الجزائري الحديث. منشورات اتحاد الكتاب العرب.
- 8- سلامة، ن. (2014). الشيفرة الإلهية المعاني الفنية للأساطير اليونانية، دمشق: دار نينوى.
- 9- عطار، أ. (2016). مقاربات فلسفية للنصوص الروائية الجزائرية. تلمسان: النشر الجديد الجامعي.
- 10- كونديرا، م. (1991). فن الرواية. مجلة العرب والفكر العالمي. 8 ،
- 11- ماجدولين، ش. (2012). أنساق الغيرية في السرد العربي، منشورات الاختلاف. بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون.
- 12- معتصم، م. (2014). المتخيل المختلف. بيروت: دار الأمان الرباط.
- 13- مفتي، ب. (2013). دمية النار. بيروت: منشورات ضفاف.
- 14- مفتي، ب. (2019). وحيدا في الليل. للجزائر: منشورات الاختلاف.
- 15- مؤلفين، م. (2014). فلسفة السرد، بيروت: دار الأمان.
- 16- يوسف، أ. (2013). علامات فارقة في الفلسفة واللغة والأدب. بيروت: منشورات ضفاف.
- 17- بشير مفتي. (2008)، خرائط لشهوة الليل. الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، منشورات الاختلاف، الجزائر.
- 18- بشير مفتي، (2011)، غرفة الذكريات. منشورات ضفاف بيروت، منشورات الاختلاف، الجزائر.